الفصل الثامن

شخصية النبى ﷺ التربوية

obeikandl.com

obeikandl.com

شخصية النبي ﷺ التربوية

هذا الفصل هو المحور الرئيس لهذا الكتاب، بل هو الدافع لتأليفه. فقد كنت أنظر في أحوال المسلمين، وفي أحوال أبناء الحركات الإسلامية على وجه الخصوص، التي تعمل لنشر دين الله، ووضعت لذلك البرامج والمناهج، ورصدت المعلمين والمربين، ومع ذلك فقد يبقى الأخ المسلم سنين طويلة في محاضن الحركة الإسلامية التربوية ولا يتحول إلى ذلك الإنسان الرباني الذي هو عدة النصر في معركة الحق والباطل. بينما كان الأعرابي يُقبل على رسول الله ﷺ، يؤمن بما جاء به، ويدفعه رسول الله ﷺ إلى بعض أصحابه يعلمونه ويفقهونه، فيكون بتعاليم النبي، والتزود من زاده، والتخلق بأخلاقه، والتأسي بسلوكه، ذلك الإنسان الرباني الذي يبني نفسه ومجتمعه، ويتهيأ بتغيير حاضره لبناء مستقبله، وبتغيير نفسه لتغيير المجتمع.

لماذا فشلت الكثير من الهيئات والحركات الإسلامية في هذه المهمة الهامة والخطيرة؟

هل لضعف في البرامج التربوية وقصورها؟

هل الوسائل المستخدمة ما زالت متخلفة؟

هل التطبيقات العملية ما زالت مهملة والتركيز ينحصر في الموضوعات النظرية؟

قد يكون الأمر يتعلق نسبيا بكل هذه الأسباب.. ولكن السبب الرئيس (في نظرنا) هو غياب المربي الربانى الأخلاقي الذي يزرع الحب قبل الدرس، والذي يعتبر الطالب الذي يربيه أخاه أو ابنه قبل أن يكون رئيسه ، وبكلمة واحدة أن يتعرف على شخصية النبي ﷺ التربوية ويتأسى بها.

يقول النبي ﷺ: «إنما بعثت معلما»[1]، ولهذا فلم يكن غريبا أن ترافق التربيةُ الدعوةَ الإسلامية منذ لحظاتها الأولى، وأن يكون رسول الله ﷺ - وهو خريج المدرسة الإلهية- أول معلم في الإسلام، وبالتالي الأسوة الحسنة للمعلمين.

إن استعراض حياة الرسول ﷺ العملية، ودراسة طرائقه التربوية، التي غيّر بها سلوك أصحابه .. فنقلهم من ظلمات الجهل إلى أنوار المعرفة، ومن خشن الطباع إلى الأدب الرفيع،ومن الأنانية الطاغية إلى الإنسانية الرحيمة، ومن جبروت القبلية والعصبية العمياء إلى الأخوة الغامرة في الله ، ومن ضياع الحاضر إلى بناء الحاضر والمستقبل ، هذا الاستعراض يؤكد لنا أن رسول الله ﷺ هو المربي العظيم لأجيال المسلمين ، ولكل من تأثر بقوله أو فعله أو إرشاده في الفكر والعاطفة والسلوك ، وسنحاول هنا. أن نتبين بعض ملامح شخصيته ﷺ التربوية .

١ - حضه على التعلم والتعليم :

قال تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ ﴾[2] .

علّمهم وزكّاهم.. وأمرهم بأن يشيعوا العلم والحكمة بينهم.. قال لهم ﷺ: «والله ليعلّمن قومٌ جيرانَهم، ويفقهونَهم، ويفطنونهم، ويأمرونهم، وينهونهم، وليتعلّمن قومٌ من جيرانِهم، ويتفقهون، ويتفطنون، أو لأعاجلنّهم العقوبة في الدنيا»[3] .

إن هذا الموقف العظيم الذي يعتبر التقصير في التعلم والتعليم جريمة اجتماعية، يستحق مرتكبها العقوبة الدنيوية: موقف لم يرو التاريخ له مثيلا في تقديس العلم، قبل النبي ﷺ ولا بعده[4] .

---

(١) ابن ماجه (٢٢٩) .

(٢) الجمعة .

(٣) رواه الطبري في الكبير وهو حديث حسن أو يقارب الحسن، جزم بذلك الحافظ المنذري . الرسول المعلم : الشيخ عبد الفتاح أبو غدة، ص- ٧١.

(٤) المدخل الفقهي العام : مصطفى الزرقا ٢/ ١٤٦.

والأمر هنا في (التعلّم والتعليم) ليس لمجرد الندب، بل هو فريضة لقوله: «طلب العلم فريضة على كل مسلم». فإذا قصّر العالم في واجب التعليم، أو قصّر الجاهل في تعلّم القدر الواجب من العلم. استحقا عقوبة التعذير.

والعلم المطلوب هو كل علم نافع في أمور الدنيا والدين، يبني الفرد ويبني المجتمع ويفيد الإنسانية، أما العلم الذي لا ينفع فقد حذرنا منه المعلم الأول ﷺ فقال: «اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع» [1].

٢- رؤوف رحيم:

والعلم لن يتعدى الشفاه. ما لم تقم علاقة محبة ورحمة بين المعلم والمتعلم.

لقد كان رسول الله ﷺ من الرأفة والرحمة، وترك العنت وحب اليسر، والرفق بالمتعلم، والحرص عليه، وبذل العلم والخير له في كل وقت ومناسبة: بالمكان الأسمى والخلق الأعلى [2] قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [3].

لقد كانت الرحمة عنده ﷺ تعالياً وسلوكا..قال: «لا يُرحم من لا يَرحم الناس» [4]. وقال: «لا تنزع الرحمة إلا من شقي» [5]. وقال: «الراحمون يرحمهم الله تعالى، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء» [6]. وقال: «إنما مثلي ومثل أمتي كمثل رجل استوقد نارا فجعلت الدواب والفراش يقعن فيه، فأنا آخذ بحجزكم وأنتم تقتحمون فيه» [7].

---

(١) مسلم (٢٧٢٢/ ٧٣).

(٢) الرسول المعلم: الشيخ عبد الفتاح أبو غدة، ص ٢٢.

(٣) التوبة.

(٤) مسلم (٢٣١٩/ ٦٦).

(٥) الترمذي (١٩٢٣)، وقال: «حسن».

(٦) الترمذي (١٩٢٤)، وقال: «حسن صحيح».

(٧) البخاري (٦٤٨٣)، ومسلم (٢٢٨٤/ ١٧).

والمربي المحروم من الرحمة،الغليظ القلب،لا ينجح في عمله، ولا يُقبل الناس عليه. قال تعالى:﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ (١) .

* عن مالك بن الحويرث ﷺ قال: أتينا النبي ﷺ ونحن شببة متقاربون، فأقمنا عنده عشرين ليلة، وكان رسول الله ﷺ رحيما رفيقا، فلما ظن أنا قد اشتقنا أهلنا، سألنا عمن تركنا بعدنا فأخبرناه، قال: « ارجعوا إلى أهليكم، فأقيموا فيهم، وعلموهم، ومروهم، وصلوا كما رأيتموني أصلي، فإذا حضرت الصلاة فليؤذن لكم أحدكم، وليؤمكم أكبركم» (٢) .

٣- رفيق بالمتعلمين :

لم يستخدم ﷺ العنف والفظاظة وهو يواجه المواقف الصعبة. أخذ الناس بالرفق واللين فهما الطريق الأقرب إلى القلوب. قال تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ (٣) .

وهذه آية شاملة لأهم الخصائص النفسية في شخصية المربي مثل :

* الرحمة الليّنة الواعية بدل الشدة أو الغلظة التي تحطم العلاقات السوية الإيجابية. وحتى إذا سبق من المتعلم خطيئة ، فعلى العلاقات المتبادلة أن تظل قوية ،وقوتها إنما تفد من العفو والسماح.

* ثم لابد من إشعار المتعلم بكرامته وشخصيته وأهميته﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ﴾ (٤) لأن المرء لا يتعلم إلا إذا أحب معلمه، وعلاقات المحبة إنما تنمو سعيدة بالاحترام المتبادل.

---

(١) آل عمران : ١٥٩ .

(٢) البخارى (٦٠٠٨) .

(٣) آل عمران .

(٤) آل عمران .

لقد وضّح لنا ربنا عز وجل كيف نترفق بالناس رغم إيذائهم، قال تعالى: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ [1]. وأن ذلك من عزم الأمور، قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾ [2].

لقد كان رسول الله ﷺ: «يحب الرفق في الأمر كله» [3].

«فالرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه» [4].

وعلى الداعية أن يقتدي بالمعلم الأول ﷺ الحليم الرفيق، «فمن يحرم الرفق، يحرم الخير كله» [5].

٤- يعطي كل جلسائه حقهم:

وهذه ميزة عظيمة كان يتمتع بها رسول الله ﷺ.. فلم يكن أحدٌ من أصحابه يشعر بأن غيره أقرب إلى قلب النبي منه.

* روى سيدنا علي ﷺ في وصفه لمجلس رسول الله ﷺ، قال: «كان يعطي كلّ جلسائه بنصيبه، لا يحسب جليسُه أن أحدا أكرم عليه منه» [6].

٥- يحسن الاستماع ويتواضع للسائل:

والاستماع الجيد ضرورة لاستيعاب الأمر .. وبدونه لا يمكن اتخاذ القرار الصائب، ونصف الكلام لا جواب له. ومن حسن الاستماع:

---

(١) آل عمران.

(٢) فصلت.

(٣) البخاري (٦٠٢٤)، ومسلم (٢١٦٥/ ١٠).

(٤) مسلم (٢٥٩٤/ ٧٨).

(٥) مسلم (٢٥٩٢/ ٧٤).

(٦) الترمذي في الشمائل.

*التفرغ لمحدثك فلا تنشغل عنه بقضية أخرى،الأمر الذي يساعدك على فهم عبارة محدثك وملاحظة إشارته وصوته ووجهه، وكلها ضرورية لفهم الحديث.

*التركيز على صلب الموضوع والابتعاد عن الأمور الهامشية.

*الابتعاد عن سرعة الاستنتاج أو اتخاذ أحكام متسرعه بحق السائل.

ولننظر إلى سلوك النبي وهو يحسن الاستماع ويتواضع للسائل:

* عن أبي رفاعة العدوي ﷺ قال: انتهيت إلى النبي ﷺ وهو يخطب، فقلت: يا رسول الله، رجل غريب جاء يسأل عن دينه، لا يدري ما دينه قال: فأقبل عليّ رسول الله ﷺ، وترك خطبته حتى انتهى إليّ، فأُتي بكرسي، قال: فقعد عليه وجعل يعلمني مما علّمه الله، ثم أتى خطبته فأتمّ آخره[1].

لقد فرّغ النبي ﷺ نفسه لهذا السائل، فقام إليه وجلس بجانبه، واستمع منه، ثم أجابه.

* وعن أنس ﷺ: أن امرأة قالت: يا رسول الله إنّ لي إليك حاجة، فقال ﷺ: يا أمّ فلان، انظري أيّ السكك شئت حتى أقضي لك حاجتك ..، فخلا معها في بعض الطرق، حتى فرغت من حاجتها[2].

طلب النبي ﷺ من هذه المرأة أن تشرح له قضيتها في الزمانِ والمكان المناسبين لها. حتى يتفرغ لسماعها وإفادتها.

٦- كلامه فصل:

* ذكرت السيدة عائشة رضي الله عنها وهي تتحدث عن النبي ﷺ قالت: ما كان رسول الله ﷺ يسرد كسردكم هذا، ولكن كان يتكلم بكلام بيّن فصل يحفظه من جلس إليه)[3].

---

(١) مسلم (٨٧٦/ ٦٠).

(٢) مسلم في (٢٣٢٦/ ٧٦).

(٣) الترمذي في الشمائل.

* وروى أنس ﷺقال: (كان رسول ﷺ الله يعيد الكلمة ثلاثا لتعقل عنه) [1].

* وكان رسول الله ﷺ يفتتح الكلام ويختتمه باسم الله تعالى، ويتكلم بجوامع الكلم، كلامه فصل، لا فضول ولا تقصير [2].

بهذا الصوت الأليف والنبرة الحانية الوادعة.. والهدوء في تناول الأمور.. كان ﷺ يفتح القلوب لتلقي الموعظة.

٧- يختار الأسلوب الأنسب لنفسية المتعلم :

التربية الناجحة هي التي تراعي حالة المتعلم الجسمية، واستعداده النفسي والعقلي للفهم والاستيعاب والتنفيذ أثناء عملية التعليم.

فمن جاء إلى نائم وألقى عليه درسا، كان عمله عابثا ، ومن أتى بطالب ناشئ في روضة الأطفال، أو المدرسة الابتدائية وألقى عليه محاضرة جامعية كان جهده ضائعا.. وإذا وجدت إنسانا يغرق فليس من الحكمة التربوية أن تلقي عليه محاضرة في أهمية النجاة العاجلة.

وكذلك إذا وجدت إنسانا محاصرا في منزل شبت فيه النار، فصياحك عليه بضرورة المحافظة على سلامته، وإعلامه بآثار الحريق الضارة لا يفيد ، ولننظر في هذا الموقف التربوي الذي سجله النبي ﷺ في تعامله مع الآخرين.

ولننظر إلى توجيهات النبي ﷺ التربوية، وكيف كان يختار الأسلوب الأنسب لنفسية المتعلم ، ويختار الوقت المناسب الذي يراعي حالة المتعلم الجسمية والإدراكية والنفسية والصحية أثناء العملية التربوية.

* عن أنس بن مالك ﷺ قال: بينما نحن في المسجد مع رسول الله ﷺ، إذ جاء أعرابي وقام إلى ناحية المسجد،وجعل يبول فصاح به الناس وقالوا: مه . مه، فقال الرسول المربي : «لا تزرموه» فتركوه حتى انتهى. ثم إن رسول الله ﷺ دعاه فقال له: «إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول، ولا القذر، إنما هي لذكر الله عز وجل، والصلاة، وقراءة القرآن» .

(١، ٢) الترمذى فى الشمائل .

ثم إنه أمر رجلا من القوم فجاء بذنوب -بدلو من ماء- فشنه- حسه عليه [1].

في هذا الحديث النبوي توجيهات تربوية بليغة في مراعاة حالة المتعلم النفسية، والاجتماعية، والجسمية، والصحية. لأن كل عملية للتعليم تهمل جانب المتعلم هي عملية فاشلة عقيمة.

ففي قوله ﷺ : «لا تزرموه» حكمة نفسية اجتماعية بالغة، وهي أن الإنسان المدرك يميل فطريا إلى التستر والاختفاء والبعد عن الجماعة أثناء عملية التخلص من الفضلات، فمحاولة التشهير والإعلان فيها إحراج نفسي، وخجل اجتماعي، لا يكون الإنسان معها في موقف يعينه على الانتباه والفهم والتعلم. كما أن التوقف أو الامتناع الطويل يتطلب جهدا مضنيا لأعصابه القابضة على عدم الانطلاق، وهي جهود إذا استمرت فإنها تسبب آلاما وأمراضا.

وهنا تظهر الحكمة التربوية النبوية في «لا تزرموه» في الجانب النفسي، والجسمي، والصحي للمتعلم.

ثم هب أننا أغفلنا كل ما تقدم من الحكم التربوية، وفرضنا أن الرجل قد سمع إلينا وحمّلناه الآثار السيئة في نفسه وجسمه.. فإن الغرض الشرعي المطلوب لا يتحقق بل إن العكس يحدث فإن المكان الذي أصابته النجاسة لن يكون صغيرا محدودا يكفيه دلو من الماء، حين يمشي الرجل فإنه سينشر النجاسة من مكان إلى مكان في مساحة أكبر من المسجد ولا يكفيه عشرات من الدلاء.

٨- رعايته الفروق الفردية في المتعلمين :

لقد كان المعلم الأول ﷺ شديد المراعاة للفروق الفردية والنفسية بين المتعلمين من المخاطبين والسائلين، فكان يخاطب كلّ واحد بقدر فهمه وبما يلائم منزلته، وكان يحافظ على قلوب المبتدئين، فلا يعلّمهم ما يعلّم المنتهين. وكان يجيب كل سائل عن سؤاله بما يهمه ويناسب حاله.

---

(١) مسلم (٢٨٥/ ١٠٠)، وأحمد (٣/ ١٩١).

وللنظر في هذه المواقف التربوية ، وكيف كان النبي ﷺ يوجه أصحابه كلا حسب قدرته على الاستيعاب ، وحاجته.

إذًا يتكلموا :

عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ ومعاذ بن جبل رديفه على الرحل قال: «يا معاذ»، قال: لبيك رسول الله وسعديك، قال: «يا معاذ» ، قال: لبيك رسول الله وسعديك، قال: «يا معاذ» ، قال: لبيك رسول الله وسعديك .

قال: « ما من عبد يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا عبده ورسوله، صدقا من قلبه إلا حرّمه الله على النار، قال: يا رسول الله أفلا أخبر به الناس فيستبشروا؟ قال: لا، إذاً يتكلوا» [1] .

لقد خص نبي الله ﷺ بهذا العلم الدقيق قوما فيهم الضبط وصحة الفهم، وأوصى بألا يبذل هذا العلم لمن لا يحسنون فهمه فيتكلوا.

إن الشيخ يملك إربه :

عن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ قال: كنا عند النبي ﷺ، فجاء شاب فقال: يا رسول الله، أُقبّل وأنا صائم؟ قال: لا، فجاء شيخ فقال: أُقبّل وأنا صائم؟ قال: نعم، فنظر بعضنا إلى بعض، فقال رسول الله ﷺ: « قد علمت لِمَ نظر بعضكم إلى بعض، إن الشيخ يملك نفسه» [2] .

وفرق بين الشاب المتقد حيوية ، وبين الشيخ الذي فقد الكثير من حيويته ، هذا الفرق اقتضى التوجيه التربوي المختلف.

---

(١) البخارى (١٢٨) ، ومسلم (٣٠/ ٤٨) .

(٢) أحمد (٢/ ١٨٥) .

ففيهما فجاهد :

وعن عبد الله بن عمرو ﷺ قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ يستأذنه في الجهاد، فقال: أحيٌّ والداك؟ قال: نعم، قال: « ففيهما فجاهد» [1] .

هذا مع ما عُرف عن النبي ﷺ من الحض على الجهاد والهجرة والترغيب فيهما، ولكنه ﷺ لاحظ حال هذا السائل ، فرأى بر الوالدين أهم وأفضل في حقه من الجهاد.

أوصني بشيء :

وعن أبي ذر ﷺ قال: قلت: يا رسول الله، أوصني، قال: « اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن» [2] .

وعن أبي هريرة ﷺ : أن رجلا قال للنبي ﷺ :« أوصني بشيء، ولا تكثر عليّ لعلي أعيه» ، قال :«لا تغضب». فردد ذلك مرارا، كل ذلك يقول: « لا تغضب» [3] .

سؤال واحد أجاب عليه رسول الله ﷺ إجابات مختلفة تتناسب مع كل سائل.

كيف النجاة؟

* وعن أبي هريرة ﷺ ؛ أن أعرابيا جاء رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، دلني على عمل إذا عملته دخلت الجنة، قال: « تعبد الله لا تشرك به شيئا، وتقيم الصلاة المكتوبة،وتؤدي الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان»،قال: والذي نفسي بيده لا أزيد على هذا شيئا أبدا ولا أنقص منه. فلما ولّى قال النبي ﷺ: «من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا» [4] .

---

(١) البخارى (٣٠٠٤) ، ومسلم (٢٥٤٩/ ٥).

(٢) الترمذى (١٩٨٧) ، وأحمد (١٥٢/٥) .

(٣) البخارى (٦١١٦) ، والترمذى (٢٠٢٠).

(٤) البخارى (١٣٩٧) ، ومسلم (١٤/ ١٥).

* وعن عبد الله بن بسر ﷺ ؛أن رجلا قال: يا رسول الله ،إن شرائع الإسلام قد كثرت عليّ ، فأخبرني بشيء أتشبث به ، قال : « لا يزال لسانك رطبا من ذكر الله» [1].

* وعن سفيان بن عبد الله الثقفي ﷺ ، قال: قلت : يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولا لا أسأل عنه أحدا بعدك، قال:« قل: آمنت بالله ثم استقم» [2] .

* وعن عقبة بن عامر ﷺ قال: قلت يا رسول الله : ما النجاة؟ قال: « أمسك عليك لسانك، وليسعك بيتُك، وابك على خطيئتك» [3] .

أسئلة كثيرة عن أفضل الأعمال.. أجاب عنها النبي ﷺ كل سائل بما يلائم وضعه.

أي الإسلام خير؟

* وعن عبد الله بن عمرو ﷺ ؛ أن رجلا سأل رسول الله ﷺ : أي الإسلام خيرٌ؟ قال:« تطعم الطعام، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف» [4] .

* وعن عبد الله بن عمرو ﷺ : أن رجلا سأل رسول الله ﷺ، فقال: أيُّ المسلمين خيرٌ؟ فقال:« من سلم المسلمون من لسانه ويده» [5] .

أي الأعمال أفضل؟

* وعن أبي هريرة ﷺ قال: سُئل النبي ﷺ: أيُّ الأعمال أفضل؟ قال: « إيمان بالله ورسوله» ، قيل : ثم ماذا؟ قال: «جهاد في سبيل الله» ، قيل: ثم ماذا؟ قال: «حج مبرور» [6] .

---

(١) الترمذى (٣٣٧٥) ، وابن ماجه (٣٧٩٣) .

(٢) مسلم (٣٨/ ٦٢) ، وأحمد(٣/ ٤١٣) .

(٣) الترمذى (٢٤٠٦) ، وقال : « حسن» .

(٤) البخارى (١٢) .

(٥) البخارى (١٠، ١١) ، ومسلم (٤٠/ ٦٤).

(٦) البخارى (٢٦) ، ومسلم (٨٣/ ١٣٥).

* وعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: سألت رسول الله ﷺ: أيُ العمل أفضل؟ قال: «الصلاة لوقتها» ، قال: قلت: ثم أيُ؟ قال: «بر الوالدين» ، قال: قلت: ثم أيُ؟ قال: «الجهاد في سبيل الله» ، فما تركت أستزيده إلا إرعاء عليه» [1] .

* وروى أبو يَعلى عن رجل من خثعم قال: آتيت النبي ﷺ، وهو في نفر من أصحابه. فقلت: يا رسول الله، أيُّ الأعمال أحب إلى الله؟ قال: «الإيمان بالله» ، قال: قلت: يا رسول الله، ثم مه(أي ثم ماذا)؟ قال: «ثم صلة الرحم»، قال: قلت: يا رسول الله، ثم مه؟ قال: «ثم الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر» [2] .

أجوبة مختلفة لأسئلة متشابهة.. راعى فيها الرسول المعلم ﷺ أحوال السائلين وما يحتاجون إليه.

٩- يتدرج معهم :

كان المعلم الأول ﷺ يراعي التدرج في التعليم، يقدم الأهم فالمهم، ويعلم شيئا فشيئا نجما نجما، ليكون أقرب تناولا، وأثبت على الفؤاد حفظا وفهما.

عن ابن عباس ﷺ أن النبي ﷺ بعث معاذا إلى اليمن، فقال: « إنك ستأتي قوما من أهل الكتاب، فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة ، تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم، فإن هم أطاعوا لذلك فإياك وكرائم أموالهم ، واتق دعوة المظلوم ، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب» [3] .

١٠- يقابل الإساءة بالإحسان :

إن العلاقات المحببة النشيطة، ينبغي أن تكون ركنا أساسيا في تكوين كل شخصية إنسانية كريمة ، لتعيش سعيدة في ذاتها، ولتنشر السعادة فيمن حولها.. بيد أن هذا

---

(١) مسلم (٨٥/ ١٣٧) .

(٢) مسند أبي يعلى (٦٨٣٩).

(٣) البخاري (١٤٩٦) ، ومسلم (١٩/ ٢٩).

السلوك أشد وجوبا وإلحاحا في شخصية كل من له سلطان تربوي نفسي، أو سلطان تعليمي توجيهي، أو سلطان إداري إشرافي ، فسلامة الصدر، وكبر القلب، وهدوء النفس كل ذلك عوامل عاطفية عقلية هي أساسية في نجاح تلك العلاقات الإنسانية.

دعونا نعش قليلا في أحد المواقف التربوية النفسية الرائعة التي نجدها ماثلة في حياة الرسول الكريم ﷺ، لتكون مثلا أعلى لكل مربّ أو معلم.

ذاك أعرابي عاش في البادية، وقد أتى أول مرة إلى المدينة. فيفد إلى رسول الله ﷺ يطلب شيئا من الصدقة، فيعطيه النبي ﷺ ما كان لديه حاضرا. ثم يسأل الأعرابي: «أأحسنت إليك» قال الأعرابي منكرا بقسوة: (لا، ولا أجملت).. سمع ذلك من كان حاضرا من الصحابة، فغضبوا من هذا الرد السيئ الذى يُقابل به الرسول الكريم، ولكنه أشار إليهم فورا، أن كفوا عنه.

وقام ﷺ فدخل منزله وأتى بما يُنعم به على الأعرابي ثم أرسل إليه وزاده.

وهنا يسأله رسول الله ﷺ: «أأحسنت إليك»؟!

قال الأعرابي: نعم ، أحسنت وأجملت.. وجزاك الله من أهل وعشيرة خيرا .

إنه أعرابي يمثل صفاء البادية وتلقائيتها، كل ما فيها ظاهر وصريح، وقاس ومباشر. ولكنه الرسول المربي، وهو يعلم هذه النفسية، عاملها بما يلائمها، وإلى هنا والحادثة لم تنته، إذ قال عليه الصلاة والسلام للأعرابي بعد أن رضي:

« إنك قلت ما قلت، من عدم رضائك أولا، وفي نفس أصحابي عندما سمعوك من ذلك شيء عنك، فإن أحببت -ولتنظر لهذا الرجاء المؤدب -فقل بين أيديهم ما قلت بين يدي، حتى يذهب ما في صدورهم عليك» .

إنه علاج تربوي نفسي للجانبين معا في آن واحد علاج للأعرابي ليصلح ما بدر منه، وعلاج لنفوس الصحابة فيرضون عن ذلك الأعرابي. ويجيب الأعرابي بكل صفاء نعم. فلما كان العشي وتجمع الصحابة جاء رسول الله ﷺ فقال: «إن هذا الأعرابي قد قال ما قال.. ثم زدناه. فزعم أنه قد رضي، أكذلك؟» .

قال الاعرابي: نعم، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرا.

والختام التربوي الهام للحادثة: بأنه كان تحليلا لنفسية الأفراد ولاسيما في عمليتي التربية والإدارة؛ إذ إن حسن المعاملة، ورد الإساءة بالإحسان يضفي حسن السلوك، إن عاجلا أم آجلا، ويضفي السعادة النفسية فورا.

وفي ختام هذه الحادثة مثل توضيحي لتلك العلاقات الإنسانية النفسية. إذ يقول الرسول الكريم ﷺ: «مثلي ومثل هذا، مثل رجل له ناقة شردت عليه، فاتبعها الناس ليقبضوا عليها، فلم يزيدوها إلا نفورا، فناداهم صاحبها: خلو بيني وبين ناقتي، فإني أرفق بها منكم وأعلم، فتوجه إليها بين يديها، وأخذ لها من قمام الأرض من أعشابها، فردها هادئة وجاءت واستناخت وشد عليها رحلها واستوى عليها...».

وأختتم الرسول الكريم ﷺ هذه الحادثة بقوله:

«وإني لو تركتكم حيث قال الرجل فقتلتموه دخل النار»[1].

١١ - كان ﷺ يكتشف طاقات أصحابه:

تعرّف على قوة عمر.. فكان يدعو الله أن ينصر به الإسلام، وتعرّف على قوة خالد، فقال: إنه سيف من سيوف الله، وتعرّف على قوة أبي عبيدة فقال: غدا أرسل معكم القوي الأمين، وتعرّف في الوقت ذاته على ضعف أبي ذر فقال ﷺ: «يا أبا ذر، إني أراك ضعيفا، وإني أحب لك ما أحب لنفسي، لا تأمّرن على اثنين، ولا تولّينّ مال اليتيم»[2].

لقد علّمنا رسول الله ﷺ بأقواله وأفعاله وسيرته، كيف تكتشف وترشد الطاقات.

اكتشاف شخصية زيد بن ثابت ﷺ:

نبينا محمد ﷺ رأى زيد بن ثابت ﷺ فأعجب به وأدرك على الفور موهبته في الفهم السريع والحفظ القوي والذاكرة الحية، فقال له: «يا زيد تعلّم لي كتاب يهود فإني والله

---

(١) الشفا للقاضي عياض (١/ ٢٥٣).

(٢) مسلم (١٦٦١/ ٣٨).

ما آمن يهود على كتاب » قال زيد: فتعلمت كتابهم، ما مرت بي خمس عشرة ليلة حتى حذقته. وكنت أقرأ له كتبهم إذا كتبوا إليه . وأجيب عنه إذا كتب. ثم سأله رسول الله ﷺ: «تحسن الربانيّة إنها تأتيني كتب..؟ » قلت: لا، قال ﷺ: فتعلمها. فتعلمتها في سبعة عشر يوما [1] .

هذه هي مهمة القائد: أن يستكشف الطاقات من حوله. ويدربها ويوجهها.

اكتشاف شخصية عبد الله بن مسعود ﷺ :

كان عبد الله بن مسعود نحيل الجسم ضامرا، دقيق الساقين قصير ، اكتشف رسول الله ﷺ مواهبه فقال له:« إنك غلام معلّم» . شجعه على التفرغ للعلم ، وقربه منه حتى كان أشبه بصاحب سره، لا يفارقه في سفر ولا حضر.. ويدور الزمان ويصبح الراعي المغمور من أئمة الصحابة وعلمائهم وقرائهم، يجعله الرسول للناس إماما ويوصي أصحابه أن يقتدوا بابن مسعود فيقول: «من سره أن يقرأ القرآن غضّا كما أُنزل فليسمعه من ابن أم عبد» [2] ، كان يمكن أن يبقى عبد الله بن مسعود ﷺ رويعي غنم في مكّة لا يأبه له أحد.. ولكن الرسول الأعظم ﷺ يتعهد الطاقات بعد اكتشافها فيصبح عبد الله ابن مسعود ﷺ معلما وإماما. وفي خلافة عمر ﷺ يرسله الخليفة إلى الكوفة ومعه كتاب تكليفه، وقول عمر ﷺ : «إني والله قد آثرتكم به على نفسي.. فخذوا منه وتعلموا» [3] .

اكتشاف شخصية عمر بن الخطاب ﷺ :

الرسول القائد يكتشف مواهب عمر بن الخطاب قبل أن يسلم فيطلق قولته المشهورة: « اللهم انصر الإسلام بأحب العمرين إليك.. عمرو بن هشام أو عمر بن الخطاب» . سهّل له القدوم فأصبح من أعاظم القادة في التاريخ ، كان نموذجا فريدا في سرعة الإدراك واستقراء الأحداث والحكم عليها.

---

(١) أحمد (٥/ ١٨٦) .

(٢) أحمد (١/ ٢٢٨) ، وقال الشيخ أحمد شاكر (٢٦٥) :« إسناده صحيح ».

(٣) الرسول العربى المربى : د. عبد الحميد الهاشمى ، ص ١٦٤-١٧٥ باختصار .

يوم أسلم جاء دار الأرقم بن أبي الأرقم وأمام رسول الله ﷺ نطق بالشهادتين ، ومنذ لحظة دخوله في الإسلام ، استشعر مسؤوليته عن الدين الجديد ، وطالب رسول الله ﷺ بالخروج ومواجهة الشرك ، من يقلّب صفحات التاريخ الإسلامي سيجد مكانا بارزا فيه تبوأه عمر بن الخطاب ﷺ مستشارا لرسول الله ورفيقا للخليفة الأول ، وخليفة عادلا ، وقائدا فذا ندر مثيله في التاريخ.

كيف اكتشف رسول الله ﷺ موهبة عمر وهو مازال في معسكر الشرك يذيق المسلمين أشدّ العذاب، وكيف هذبه وشذبه بعد إسلامه حتى غدا في مقدمة العظماء الذين يفخر بهم تاريخ الإنسانية. هذا هو دور القائد المربي في التعرف على القيادات وإطلاقها لتأخذ دورها في معركة البناء.

اكتشاف شخصية عبد الله بن عباس ﷺ :

الرسول القائد يكتشف موهبة عبد الله بن عباس فيقول ﷺ : « اللهم فقّهه في الدين» [1] ، فأصبح فقيه الأمة وحبرها.

عن ابن عباس ﷺ قال: دعا عمر بن الخطاب ﷺ أصحاب محمد ﷺ فسألهم رضوان الله عليهم عن ليلة القدر، فأجمعوا على أنها في العشر الأواخر ، قال ابن عباس: فقلت لعمر : إني لأعلم - أو أني لأظن- أي ليلة القدر هي ، فقال عمر: وأي ليلة هي؟ فقلت سابعة : تمضي أو سابعة تبقي من العشر الأواخر . فقال عمر: من أين علمت ذلك؟ قال ابن عباس فقلت : خلق الله سبع سموات ، وسبع أرضين ، وسبعة أيام ، وأن الشهر يدور على سبع ، وخلق الإنسان من سبع ، ويأكل من سبع ، ويسجد على سبع ، والطواف بالبيت سبع ، ورمي الجمار سبع ، لأشياء ذكرها ، فقال عمر : لقد فطنت لأمر ما فطنّا له [2] .

---

(١) البخارى (١٤٣).

(٢) فتح البارى (٤/ ٢٦٢).

ويلتقط سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ هذه الموهبة الشابة المبكرة، ويضمه إلى مجلس شوراه، وهو بعد فتى صغيرا، هذا هو دور القائد، يبحث عن المواهب، ويصقلها، ويقدمها.. فما معنى اكتشافها إذا بقيت مهملة..؟

اكتشاف شخصية أسامة بن زيد ﷺ :

اختار رسول الله ﷺ أسامة بن زيد ﷺ لقيادة الجيش المتجه لدومة الجندل لقتال الروم، مع وجود من هو أقدم منه في الجيش من كبار الصحابة وفيهم أبو بكر وعمر، فقد روى البخاري عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، قال: بعث النبي ﷺ بعثا، وأمّر عليهم أسامة بن زيد، فطعن بعض الناس في إمارته، فقال النبي ﷺ: « إن تطعنوا في إمارته فقد كنتم تطعنون في إمارة أبيه من قبل، وايم الله إن كان لخليقا بالإمارة، وإن كان أبوه لمن أحب الناس إليّ، وإن هذا لمن أحب الناس إلي بعده» [1].

المسلمون كانوا ينظرون إلى أسامة وإلى والده زيد من قبل بعيون الموقع والقبيلة.. ورسول الله ﷺ كان ينظر إليهم بعيون القائد الذي يبحث عن الموهبة.

اكتشاف شخصية خالد بن الوليد ﷺ :

الرسول القائد ﷺ يكتشف موهبة خالد بن الوليد العسكريّة فيقول:

«خالد سيف من سيوف الله سلّه الله على المشركين» [2]. فيصبح خالد القائد العسكري العظيم الذي لا يهزم.

البحث عن الراحلة :

الرسول ﷺ يخبرنا فيقول : تجدون الناس كإبل مائة لا يجد الرجل فيها راحلة [3]، ومهمة القائد الناجح أن يبحث عن هذه الراحلة.

---

(١) البخارى (٤٤٦٨، ٤٤٦٩).

(٢) أحمد(١/ ٨)، وقال الشيخ أحمد شاكر (٤٣) : « إسناده صحيح » .

(٣) البخارى (٦٤٩٨).

ومهمة الحركة الناجحة أن تبحث عن هذه الراحلة ، فهي وحدها القادرة على استيعاب الشباب واكتشاف مواهبهم في مجالات التربية والسياسة والتخطيط والتدريب .

روى البخاري، عن ابن عمر قال: كنا عند رسول الله ﷺ فقال: « أخبروني عن شجرة تشبه المؤمن - أو كالرجل المسلم- لا يتحات ورقها صيفا ولا شتاء، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها؟ » قال ابن عمر: فوقع في نفسي أنها النخلة، ورأيت أبا بكر وعمر لا يتكلمان، فكرهت أن أتكلم، فلما لم يقولوا شيئا ، قال رسول الله ﷺ: «إنها النخلة»، فلما قمنا، قلت: يا أبتاه ، والله لقد كان وقع في نفسي أنها النخلة، قال: ما منعك أن تكلم؟ قلت : لم أركم تكلمون ، فكرهت أن أتكلم، وأقول شيئا، قال عمر: لأن تكن قلتها، أحب إليّ من كذا وكذا [1] .

واكتشاف المواهب عملية شاقة وطويلة ، وهي أساس سعادة الفرد وتكامل المجتمع ، وتحتاج إلى قائد ومرب ماهر يستخلص الدرر والجواهر من بين حبات الرمال المتراكم.

(١) البخارى (٦١، ٦٢) ، وتفسير ابن كثير ٢/ ٥٣٠ .

obeikandl.com

خلاصة الفصل الثامن

شخصية النبي ﷺ التربوية

١ - حضه على التعلم والتعليم.

٢ - رؤوف رحيم.

٣- رفيق بالمتعلمين.

٤ - يعطي كل جلسائه حقهم.

٥ - يحسن الاستماع.

٦ - كلامه فصل.

٧- يراعي نفسية المتعلمين.

٨- يراعي الفروق بين المتعلمين.

٩- يتدرج معهم.

١٠- يقابل الإساءة بالإحسان.

١١- يكشف الطاقات.

obeikandl.com